سروش في «الصراطات المستقيمة: قراءة جديدة لنظرية التعددية الدينية»

الوسط - محرر فضاءات

o بجرأته المعهودة ولغته الممزوجة بشعر جلال الدين الرومي وجمعه بين موروث الفكر الإسلامي ومستجد الفكر الغربي يواصل المفكر الإيراني عبدالكريم سروش(1) تنظيره في حقل المعرفة الدينية - الذي اشتهر من خلال «نظرية القبض والبسط في الشريعة» - في كتابه الجديد «الصراطات المستقيمة... قراءة جديدة لنظرية التعددية الدينية»، ويمتاز جهد سروش بشيء من الخصوصية لكونه يتحرر من قيد مذهبيته (الشيعية) لينفتح على فضاء التجربة الإنسانية بتنوعها، إضافة لتناوله القضايا الدينية لا بوصفه رجل دين مختصاً، بل بوصفه متديناً من خارج المؤسسة الدينية يرفض أن تُحتَكَر السلطة الدينية أو تُحصر في طبقة أو فئة.

كان سروش قد خصص كتابه الأول «نظرية القبض والبسط في الشريعة» لمعالجة ما يسميه إشكالية الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي، ففرَّق بين «الدين» بوصفه ثابتاً متمثلاً في الوحي وبين «المعرفة الدينية» النسبية والمتغيرة والتي «تنقبض وتنبسط» تبعاً لما يجري في حقول المعرفة الأخرى من تقدُّم أو تأخُّر، فَنَصُّ الوحي ساكتٌ لا يتكلم إلا إذا استنطقناه بأدواتنا النسبية، ولا يمكن التسوية بين نصٍّ متعال وبين قارئ مرتهَن لنسبيته في كل شيء؛ ما يعني رفع القدسية عن كل ما سوى الوحي، والمطالبة بقراءة جديدة له تستجيب لمتطلبات العصر وتسعى لحل إشكالاته، وقد أثار هذا الكتاب - منذ أن كان مقالات متفرقة - موجة كبيرة من النقد داخل المؤسسة الدينية في إيران كما حشد له - في الوقت نفسه - كثيراً من المؤيدين والأنصار بين مثقفين وغيرهم.

أما كتابه الجديد «الصراطات المستقيمة»، فهو وإن بدا للوهلة الأولى مجموعة من سبعة مقالات ومحاضرات قُدِّمت مفرَّقةً زماناً ومكاناً إلا أنه في الحصيلة محاولة لتأصيل التعددية وشرعنتها دينيةً كانت أو اجتماعيةً وسياسيةً والعمل على الإفادة منها، وسواء كان سروش يهدف لتحقيق التعددية السياسية والاجتماعية من خلال إقرار التعددية الدينية أو بالعكس فإنه قد انطلق في رؤيته هذه من الواقع كما هو لا كما ينبغي أن يكون، بعبارة أخرى فإنه أنشأ رؤية «معللةً» أكثر منها «مدلَّلة» كما يصطلح هو في كتابه، وامتزج جدله الكلامي الفلسفي فيه بنظرة صوفية عميقة عن اللّه والكون والإنسان مستقاة من مأثورات الشعر العرفاني.

البلورالية... عندما تعكس الحقيقة الواحدة ألوانها المتعددة

في المقالة الأولى من الكتاب يبني الدكتور سروش التعددية الدينية على ركيزتين أساسيتين هما: «تنوع الأفهام في تعاملها مع المتن الديني» و «التنوع في فهم التجارب الدينية»، ويرى سروش في هاتين الركيزتين أهم سببين للتعددية الدينية(2).

وتفصيلاً فإن المتن (النص) الديني بطبيعته قابل للقراءة من زوايا عدة وبمستويات عدة، الأمر الذي

عبد الكريم سروش

يستلزم اختلاف الفهوم الحاصلة عنه وتنوعها باختلاف قرَّاء النص زماناً ومكاناً وثقافة، وبما أن قارئ المتن الديني قد صاغ فهمه للنص بحسب ما لديه من أدوات ممكنة فليس لأحدٍ مصادرة قراءته أو إلغاؤها، وعلى هذا فإنه «من غير الممكن الفصل بين الدين وتفاسيره... فلا يتمثل الدين في مذهبٍ أو فئة، بل الدين هو مجموع تفاسيره ومذاهبه»(3)، وهذا ما يؤدي للقول بأن «تعدد التفاسير للمتن الديني يمثل وجوهاً متعددة للحقيقة»(4)، هذا التعدد لوجوه الحقيقة يسميه سروش أيضاً بـ «البلورالية» تشبيهاً بالأحجار الكريمة التي يكون تعدد أسطحها سبباً لتعكس جمالية الألوان والشكل.

أما تنوع فهم وتفسير التجربة الروحية - وهي تجربة اتصال الإنسان بعالَم الغيب بإطلاقه وسموه ولا ماديته، وتجلي اللّه تعالى لكل إنسان على نحو ما بحسب مقامه ووعيه، وهذه التجربة الروحية مرت بمراحل متعاقبة وأشكال متنوعة عبر التاريخ والأمم والديانات، وتتجلى في مظاهر دينية وشعائرية فردية أو جماعية شتى؛ ويمكن تسميتها بـ «وحي القلب»(5) الذي هو على مراتب، وأعلاها وحي الأنبياء وتجاربهم(6)، فإن «إحدى وظائف الأنبياء هي تعليمنا كيفية تفسير تجاربنا الباطنية»(7)، وهم بطبيعة الحال «كانوا يعيشون في مراتب مختلفة»(8)، ويقدمون - بحسب ظرفهم التاريخي وسياقهم المعرفي - نماذج متنوعة في الرقي الروحي وتحقيق الكمال الإنساني واتصال الإنسان بعالَم الغيب، وقد بقي أثرهم بل واتسع عبر أتباعهم، وبات من غير المعقول حصر الناس في ديانة واحدة، وإذا كان أول من غرس بذور التعددية في العالم هو اللّه كما أوردنا آنفاً فإن كل نبي قد عزز من هذه التعددية بوصفه نبياً مخصوصاً بقومه(9)، مما يسوِّغ في الحصيلة القبولَ برؤية الفيلسوف (المسيحي الموحِّد) جون هيك للأديان المختلفة بأنها عبارة عن «انعكاسات وتجليات لحقيقة الألوهية الواحدة»(10).

والواقع أن ما اعتبره سروش أهم سببين للتعددية الدينية إنما هما في الحقيقة أهم تجليين أو مَظهَرَين للتعددية الدينية وليسا سببين لها، أما الأسباب فقد ذكرها بعدُ على سبيل التبعية وأوصلها إلى ثمانية، لكنّ بعضها أيضاً لا يصلح أن يُعدَّ سبباً بقدر ما هو تأويلٌ صوفيٌّ لظاهرة التعدد مستوحى من أشعار جلال الدين الرومي.

وأقوى ما ذكره من الأسباب التي أوجدت التعددية الدينية وعززتها هو قصور المعرفة الإنسانية وتدرجها وعجزها عن الإحاطة بالواقع الواسع والمعقَّد من جميع جوانبه، وهي في شقٍّ منها معرفةٌ دينيةٌ ولابد أن التمحيص والتدقيق فيها أصعب منه في المجالات المعرفية الأخرى، وقد سبق للمؤلف تفصيل جزئيات هذه المسألة ومناقشتها في كتابه «نظرية القبض والبسط»، والسبب الثاني أصالة الفردية والتوحد لدى الإنسان حتى كأن «كل إنسان يمثل عالَماً قائماً بنفسه»(11)، مما يوجب الاختلاف في التجربة الروحية وتفسيرها لزوماً مثلما يوجب الاختلاف في فهم المتن الديني، وسببٌ ثالثٌ يصطلح عليه سروش بـ «عدم الخلوص» في أمور العالم، ويقصد به تداخل الأشياء في هذا العالم وامتزاجها ببعضها لدرجةٍ يصعب فيها فصل الشيء وتخليصه مما عداه، ومثلها المفاهيمُ والمعاني، فلا يوجد حق خالص أو باطل خالص ولا مصلحة خالصة ولا مفسدة خالصة، بل يمتزجان ويتداخلان، وعدم الخلوص هذا ليس في مجال التدين فقط بل هو موجود أيضاً في اللغات والأعراق وحتى في الطبيعة «التي لا نجد فيها إلى الآن قانوناً علمياً صادقاً ودقيقاً مئة في المئة»(12)، وربما جاز لنا أن نعد هذا السبب فرعاً من السبب الأول الذي هو قصور المعرفة الإنسانية، ثم يستعين سروش - في بيان سبب رابع للتعددية - باللازم المنطقي لاسم اللّه «الهادي» ليصل إلى أصالة الهداية الإلهية وعمومها وعدم جواز حصر الهداية بفئة قليلة من المتدينين - في أي دين كانوا - ووسم بقية الناس بالضلال، وإلا فستكون جهود جميع الأنبياء قد باءت بالفشل إلا نزراً يسيراً جداً منها، وستكون إرادة الشيطان في الإغواء غالبة على إرادة الخالق في هداية عباده(13)، و يفقد اسم «الهادي» دلالته.

التدين المدلل والتدين المعلل

إلى هذا الحد يكتمل التصور الإجمالي الذي يطرحه سروش عن التعددية الدينية، لينفتح باب الإشكالات والمآخذ التي ترِد عليه، وخروجاً منها يؤكد في المقالة الثانية على نسبية الهداية وأنها أنواع ودرجات(14)، وبهذا يكون كل فرد مهتدياً بالنسبة إلى من هو أضل منه، وضالاً بالنسبة إلى من هو أهدى منه.

ثم ينحو سروش باتجاه تمييز معنيين للكفر أحدهما «فقهي» والآخر «واقعي»(15) ليغدو تفسير الكفر لا بمعنى المخالفة للعقيدة، بل بمعنى العناد للحق وتكذيبه بعد معرفته(16)، كما يؤكد على أن الاختلاف بين الأديان لا ينبغي أن يُنظَر إليه على أنه اختلاف تضاد بل اختلاف تنوع ودرجة، فإذا انتقلنا